صُورةُ المجتَمعِ لَدَى الكَاتبَةِ مُنَى سَلامة

الباحثة/ هالة رفعت إسماعيل عبدالحفيظ

ملخص البحث

إن أنماط المجتمع لدى الكاتبة (منى سلامة) من أكثر المظاهر الذي تعبر عن المجتمع الذي نعيشه، وسنعرض ذلك من خلال دراسة الروايات بكل أشكالها وتفصيلاتها، فالكاتب عضو في المجتمع يرى ما يدور حوله وهو أكثر شخص يعبر عن هذا الكيان، فنمط الريف والمدينة مؤخرًا قد نال اهتمامًا كبيرا للنقاد والدارسين فأنتجت دراسات أدبية عديدة حول هذه الأنماط.

والريف نمط من أنماط المجتمع في الرواية الأدبية، وقد توالت الروايات في عرض صور الريف المصري، وكذلك عرض أنماط المدينة، وفي روايات (منى سلامة) اهتمت الكاتبة بالريف، وكذلك أشارت إلى لون من ألوان الحوارات الريفية أثناء تصوير مشهد من الريف.

وقد كثرت الكتابات التي تناولت جوانب من الحياة الريفية، فالحديث عن الريف هو حديث متصل بالحياة المصرية التي شهدت تغيرات كثيرة عبر العصور المختلفة.

وقد تناولت الرواية أيضًا الحديث عن الحياة في المدينة، وهي أيضًا كثيرة ومتعددة ويركز الكثير من الأدباء والمفكرين على مواجهة قضية المجتمع الحضري.

فالرواية هي الأكثر تعبيرًا عن أنماط المجتمع، وقد جسدت الكاتبة الشخصيات في الرواية بطريقة تجذب القارئ من البداية حتى يصل إلى النهاية ليفهم طبيعة الحياة.

وقد كثر أيضًا تصوير الكتاب الروائيين للحياة من خلال أنماط المجتمع، فأول إبداع لهذا المجال للكاتب (محمد حسين هيكل)، ثم توالت الكتابات التي تناولت أنماط المجتمع المصري بعده وكثرت.

فالأدب يبعث النور لحياة الانسان، وهو يقوم على أساس حضارة سليمة، ويقود الإنسان إلى السعادة. ومثال على ذلك رواية (زينب) للكاتب (حسين هيكل)، التي تستعرض المجتمع المصري وقضايا الفلاحين والعمال، ومشاكل الطبقات العامة والوسطى، وكذلك علاقة الرجل بالمرأة، ثم عالجت مشكلات المرأة والرجل وقد عرضت (منى سلامة) أيضًا قضية الريف في رواية (القصر الأسود)، وجسدت شخصيات الرواية وعالجت الأفكار في المجتمع.

Research Summary:

The patterns of society of the writer (Mona Salama) are among the most manifestations that express the society in which we live, and we will present this by studying the novels in all their forms and details. It has received great attention from critics and scholars, and numerous literary studies have been produced on these styles.

The countryside is a pattern of society in the literary novel. The novels continued to display pictures of the Egyptian countryside, as well as the patterns of the city. In the novels of (Mona Salama), the writer focused on the countryside, as well as referring to a color of rural dialogues while filming a scene from the countryside.

There have been many writings that dealt with aspects of rural life. Talking about the countryside is a conversation related to Egyptian life, which has witnessed many changes through different ages.

The novel also dealt with life in the city, which is also many and varied, and many writers and thinkers focus on confronting the issue of urban society.

The novel is the most expressive of the patterns of society, and the writer embodied the characters in the novel in a way that attracts the reader from the beginning until he reaches the end to understand the nature of life.

There has also been a lot of fiction writers portraying life through the patterns of society. The first innovation in this field was written by the writer (Mohamed Hussein Heikal), then the writings that dealt with the patterns of Egyptian society after him continued and increased.

Literature brings light to human life, is based on a sound civilization, and leads people to happiness. An example of this is the novel (Zainab) by the writer (Hussein Heikal), which review the Egyptian society and the issues of farmers and workers, and the problems of the general and middle classes, as well as the relationship of men to women, and then dealt with the problems of women and men. (Mona Salama) also presented the issue of the countryside in the novel (The Black Palace)), embodied the characters of the novel, and dealt with ideas in society.

مقدمة:

تعد الرواية من أكثر المظاهر والأشكال الفنية التي تعبر بصدق عن الواقع الذي يعيشه المجتمع، فالرواية تمثل النافذة التي تطل على المجتمع بكل أشكاله وتفصيلاته، وحيث إن الكاتب أو الروائي هو عضو من هذا المجتمع وفرد من أفراده، فهو يعيش شتى أبعاده السياسية والاجتماعية والبيئية، ولذا يكون أصدق الناس تعبيرًا عن هذا الكيان الذي يعيش فيه.

والمجتمع المصري يضم العديد من الفئات المتباينة فيما بينها، سواء من ناحية الثقافة أو التعليم أو العمل، وأيضًا هناك تباينات في المجتمعات المصرية المتعددة من جهة أخرى، فهناك المجتمع الريفي وهناك المجتمع المتمدن، وهناك المجتمع الطبقي، وكل مجتمع من هذه المجتمعات يضم العديد من الأفراد الذين قد تختلف هوياتهم، أو انتماءاتهم السياسية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية.

ولقد ظهرت أولى الروايات العربية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر (سنة ١٨٦٧م، وما بعدها)، وكانت مند نشأتها واقعة تحت تأثير عاملين: الأول: الحنين إلي الماضي، ومحاولة الاندماج فيه مرة أخرى، والثاني: الافتتان بالغرب والخضوع لهيمنته، ويري الناقد مصطفى عبدالغني أن ظهور الرواية في الوطن العربي ارتبط بعاملين أيضًا: أحدهما: أثر كل من مصر ولبنان في نشأة هذا الجنس الأدبي سواء في درجة التأثر بالغرب أو التأثير في الأقطار العربية، أما العامل الآخر: فهو ارتباط تطور هذا الفن الروائي في ظهوره بتطور الاتجاه القومي العربي ونضجه أكثر من أي عامل آخر.

ولقد أصبح كلًا من الأديب والروائي في أي مجتمع من المجتمعات المصرية بمثابة لسان المجتمع وضميره الحى في تجسيد مشكلاته والتعبير عنها بشكل لائق وفي أسلوب أدبي جميل، يدفع القارئ إلى معايشة الأحداث والوقوف عليها، وقد ازدهرت الكتابة الأدبية والروائية في عصرنا الحاضر حتى أصبح لها وقع في نفوس القراء، فالرواية ماهي إلا تعبير صادق عن الأحداث بأسلوب جذاب، وقد كان للروايات التي نحن بصدد دراستها والبحث فيها دور بارز في إثراء المكتبات العربية، وفي جذب انتباه القارئ، فقد استطاعت الكاتبة (منى سلامة) بكل بارعة أن توصل صورة المجتمع إلى القارئ بطريقة سديدة.

وفي هذا البحث سنتعرض لدراسة صور المجتمع لدى الكاتبة، وذلك من خلال دراسة صورة الريف، وصورة المدينة، وكذلك دراسة المجتمعات غير المصرية، ومدى تأثيرها على الإنسان المصري، ثم تتعرض الباحثة لدراسة تحولات المجتمع من خلال روايات الكاتبة (منى سلامة).

وتعد الرواية الأدبية بمثابة النافذة التي تطل على المجتمع بكل فنونه وأشكاله، وقد تناول الكتَّاب والمفكرين صورة الريف المصري في العديد من الروايات الأدبية، وسارعوا إلى تقديم صورة هذا الريف في العديد من الروايات الشهيرة، مما جعل هذه الروايات تتحول إلى أعمال فنية تم تقديمها في العديد من وسائل الإعلام كالتليفزيون ودور العرض السنيمائية وغيرها.

ولم تكن الكاتبة (منى سلامة) هي الأولى في هذا المضمار، بل سبقها العديد من الكتاب والمؤلفين المشهورين في استعراض القضايا التي تعبر عن الريف المصري وعن أشكاله وطقوسه وأحوال الناس فيه وأسلوب معيشتهم وطرق تعاملهم مع بعضهم البعض، ولم يقف التعبير الروائي عند هذا الحد، بل تطرق إلى معالجة قضايا جديدة فيما يتعلق بأنماط الحياة الريفية وما يتعلق بتعامل الناس مع بعضهم البعض.

كما توالت الروايات التي عبرت عن هذه القضايا الريفية منذ فترة طويلة، لدرجة أن الإعلام قد استعان ببعض هذه الأعمال كي يقوم بنشرها في الجرائد الرسمية أو كملحقات لبعض المجلات العلمية المشهورة، كما إن بعض هذه الروايات قد قُدِّم كعمل فني متميز على شاشات التليفزيون أو في دور العرض السنيمائية، ومن أشهر تلك الروايات روايتي: (الأرض – وزينب)، كما إن هناك العديد من الروايات التي قامت بذات الدور الأدبي في إيصال فكرة راقية عن المجتمع الريفي بشكل عام.

وقبل الدخول في تفاصيل الروايات التي نحن بصدد دراستها، فإن هناك بعض الحقائق التي تتجلى حول طبيعة الريف والحضر، والفروق الجوهرية بين كل منهما، وقد علق الكثير من الكتاب والمؤلفين على هذه القضايا حيث: "إن ما تتسم به الحياة الحضرية من خصائص وسمات تجعل طريقة الحياة الحضرية مغايرة بشكل واضح لطريقة الحياة الريفية. ولما كان الريف ذو طابع محافظ وتقليديّ، فإن تحديد معالم الحياة الريفية والفروق القائمة بينها وبين الحياة الحضرية المتغيرة يكشف لنا عن أسلوب الحياة في أي من النموذجين المحليين، وطبيعة البناء الاجتماعي والتنظيمات الاجتماعية السائدة في كل منهما، بالتالي يساعد هذا التحليل على تحديد الظروف والأحوال التي تعمل على

جعل بعض النماذج المحلية في مرحلة انتقالية وفي اتجاه الحضرية، وما يرتبط بها من بناء اقتصادي ومهني وسكاني. وبذلك تتحدد أبعاد التغير الاجتماعي والديموغرافي والثقافي والشخصي، وما يرتبط بهذا التغير من تكيف مع الأوضاع الاجتماعية والثقافية المتغيرة في البيئة الحضرية، وما تجره تلك التغيرات من مشكلات تتعلق بالتنظيم والتكيف والتوافق والتكامل وسوء التنظيم الاجتماعي، والاغتراب وتصدع المعايير في البيئة الحضرية"[١].

وقد كان العلامة (ابن خلدون) من أشهر المؤلفين، بل من أوائل الكتَّاب الذين تعرضوا للبحث في طبيعة الحياة البشرية وكيفية العمران والتفرقة بين المجتمعيْن الريفيّ والحضري في مقدمته الشهيرة: (مقدمة ابن خلدون)، فقد أطلق على المجتمع الريفي اسم (المجتمع العائلي)؛ لتقاربه واتحاده في الدم والنسب، بينما أطلق على المجتمع الحضريّ أو المدني اسم (المجتمع الرسميّ العقائديّ)، وأوضح أنهّ مجتمعٌ غيرُ متماسكٍ أو مترابط، وهو عبارة عن خليطٍ متنوّع من البشر[٢].

وبمطالعة كتابات الروائية (منى سلامة) نجد أنها قد اهتمت ببيان أحوال الريف في بعض من رواياتها، ويتضح ذلك بشكل أدق في رواية (القصر الأسود)، حيث تدور أحداث الرواية حول من يعيشون في قرية (دنشواي) في حقبة زمنية بعيدة بعض الشيء وهي تحديدًا منذ عام ١٩٥٢ م، ومن بين ما قدمته الكاتبة في هذه الرواية ما يلي:

في الفصل الأول من الرواية تبدأ الأحداث في عام ١٩٥٢م وتحديدًا في الحادي والعشرين من شهر يناير، وعند الاقتباس من هذه الرواية نجد ما يلي:

" ... فمخيمر السقا الذي كان يجوب القرية حافي القدمين يحمل فوق ظهره قربة الماء، يميل بجذعه فتنفتح فوهة القربة وينهمر منها الماء القذر، يبيعه على أنه ماء نظيف يصلح للشرب قد تحوَّل بين ليلة وضحاها إلى مخيمر بك !"[٣].

ففي هذه الفقرة تصوير بديع لبعض ما نجده قديمًا في القرية المصرية من عدة جوانب:

- أسماء الأشخاص.
- المهن التي كانوا يعملون بها.
- طريقة عملهم وأدائهم لهذه المهن.

---

(١) تعريف الريف والحضر – بحث علمي منشور – مجلة كلية الآداب، جامعة دمياط – قسم علم الاجتماع – ٢٠١٢م – ص٣١٦، وما بعدها.

(٢) انظر: عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار يعرب، ٢٠٠٣م، ص (١٠٩-١١٢).

(٣) منى سلامة، رواية (القصر الأسود)، ص١١.

– التحولات التي قد تطرأ على بعضهم.

وقد استطاعت الكاتبة أن تصف للقارئ هذه الجوانب في تلك الفقرة، فقد ذكرت اسم الشخصية التي تدور حولها بعض أحداث الرواية وهي شخصية (مخيمر)، وذكرت أيضًا المهنة التي كان يعمل بها، فقد كان يعمل (سَقَّا)، وهذه المهنة كانت موجودة بكثرة في كل القرى المصرية، حيث كان معظم الأهالي يلجأون إلى من يوفر لهم متطلباتهم من الماء الذي يحتاجونه في أغراضهم الشخصية كالشرب والنظافة.

ومن جهة أخرى نجد أنها قد صورت للقارئ طريقة عمل هذا السقّا، وأدائه لتلك المهمة، فتُبيِّن أنه كان يحمل (القربة) على ظهره ثم يميل قليلًا؛ كي يستطيع أن يصب الماء منها لمن يطلب منه الشراء، ولكن مع هذا فقد كان يبيع الماء القذر على إنه ماء صالح للشرب والاستخدام –على حد تعبير الكاتبة–: "... ينهمر منها الماء القذر، ويبيعه على أنه ماء نظيف يصلح للشرب ..." (١).

وفي نهاية الفقرة تبين الكاتبة أن هناك تحول ما قد يطرأ على بعض الأشخاص فيحوّل حياتهم من الفقر إلى الغنى، ومن الوضاعة إلى العزة، ومن حالة الرعاع إلى (البهوية) –على حد تعبير الكاتبة–، وهذا كان موجودًا قديمًا في الحياة الريفية التي عاشها الأجداد وبعض الآباء المسنين في فترات زمنية قديمة.

ثم يستمر حديث الكاتبة لتبين للقارئ ما يحدث غالبًا في كل المجتمعات سواء الريفية أو الحضرية، وهو ما يدور بين الناس من حوارات يتخذونها لتسلية مجالسهم، وخاصة السيدات المسنات منهن، فيتحدثون غالبًا عما يجري من أحداث في القرية، ويحاولون الربط بين تلك الأحداث وبين ما يجري في واقعهم المعاش، فتقول إحداهن: "... ألم يكن سعد زغلول فلاحًا ابن فلاح قبل أن يتزيَّنَّ اسمه بطربوش الباشاوية؟"، في محاولة منهن للمقارنة بين شخصية ابن القرية و(سعد زغلول)، تلك الشخصية المرموقة والمعروفة في المجتمع المصري على إنها شخصية مناضلة وذات كلمة مؤثرة في المجتمع.

وفي موضع آخر من نفس الفصل تروي الكاتبة: "مرْت حورية بالسوق، ترتدي جلبابًا أسود وطرحة سوداء، تمسك بأحد طرفيها لتخفي نصف وجهها، ومعلق بكتفها كيس أبيض من الكتان، توقفت عند حسان الخضري وربطت حمارها بوتد في الأرض.

(١) منى سلامة، رواية (القصر الأسود)، ص١١.

يمتلك حسان الخضري ستة قراريط ويظن نفسه من الأعيان، سمعته يقول لأحد زبائنه:

لا تتعجب يا رجل، هذه بركات مصر والمصاروة.

لو ظل مخيمر هنا بين أرجاء هذه القرية الفقيرة لتبقى إلى يوم الدين مخيمر السقا حافي القدمين، أما الآن فهو يرتدي في قدميه مداسات أشكال وألوان، شي لله يا مصر ..." (١).

ومن خلال استقراء هذه الفقرة فإن الكاتبة تبين فيها ما يلي:

- نوع الملابس التي ترتديها نساء القرية في ذلك الوقت.
- مدى الأدب والاحترام في المعاملة والظهور أمام الآخرين.
- مدى الخلط في الحوارات بين الفصحى والعامية.

بالإضافة إلى ما قدمته الكاتبة في الفقرة السابقة حول أسماء الشخصيات التي تدور حولها بعض أحداث الرواية، فقد ذكرت أيضًا شخصيتين، هما: (حورية، وحسان)، وتصف الكاتبة شخصية المرأة بوصف مثالي دقيق قائلة: "إنها كانت ترتدي جلبابًا أسود وطرحة سوداء" مما يدل على الحشمة والوقار التي كانت تنعم بهما المرأة الريفية وقتئذ"(٢).

أما عن مدى احترام المرأة ووقارها في المجتمع الريفي في ذلك الوقت، فقد أشارت الكاتبة في التفاتة جميلة، إنها كانت تمسك بطرف غطاء الرأس هذا (الطرحة) لتغطي نصف وجهها، مما يدل على عظيم وقارها وأدبها في التعامل مع الآخرين، وفي ظهورها حتى أمام الغرباء من أهل قريتها.

كما إن الكاتبة قد أشارت إلى لون من ألوان الحوارات الريفية، وهي تصور مشهدًا من مشاهد الحياة الريفية في عام ١٩٥٢م، حيث كان أهل القرى يتميزون بالبساطة حتى في عباراتهم المستخدمة، فقد مزجت الكاتبة بين اللغة الفصحى واللغة العامية في نفس الفقرة.

ومن بين العبارات التي استخدمتها الكاتبة لتصف هذا المشهد: "هذه بركات مصر والمصاروة"، وهذا تعبير مزج بين العامية والفصحى في نفس الكلمات التي لا

(١) منى سلامة، رواية (القصر الأسود)، ص١٢.
(٢) نفسه.

تتعدى أربعة فقط، كذلك الحال في حوارات المصريين، وبخاصة أهل الريف منهم، فهم يخلطون هذا الخلط في حديثهم.

وبالإضافة إلى كل هذا نجد الكاتبة قد وصفت أيضًا حال أهل القرية وما يعيشون فيه من حالة فقر، ومع ذلك يشعرون بأنهم من الأعيان، مما يدل على رضاهم بحالهم وعدم التذمر، ومما يدل أيضًا على رضاهم بحالهم التي هم عليها، إيمانهم العميق الذي يبدوا جليًا في حوارهم، وكما تصوره الكاتبة قائلة: "... لو ظل مخيمر هنا بين أرجاء هذه القرية الفقيرة لتبقى إلى يوم الدين مخيمر السقا حافي القدمين، أما الآن فهو يرتدي في قدميه مداسات أشكال وألوان، شي لله يا مصر ..." (١).

فعبارة: "إلى يوم الدين" دليل قاطع على عمق الإيمان الذي يتحلى به أهل القرية فهم يدركون وهم على فطرتهم السوية أن هناك يوم القيامة وهو يوم للحساب والعرض على الله بكل الأقوال والأعمال التي قام بها الإنسان في حياته الدنيا، وأيضًا جملة: "شي لله يا مصر" تحمل نفس العمق في المعنى الديني الذي كان يتحلى به أهل القرى في مصر قديمًا...

وفي موضع ثالث من الرواية تذكر الكاتبة ما يلي:

"لابس أنا خلخال ولا لاقي راحة البال. عاشق بقول موال وياريتة ينزال وينقال. ماشي وانا محتار ولا ليا أهل ودار. والعيشة ماشية مرار فيها الأشرار في أحسن حال"(٢).

"ستة أيام وستة أشخاص لا يعرف أحدهم الآخر، تجمعهم الصدفة داخل قصر عجيب والخصوصية أعجب، يحيط بهم المغامرات والإثارة، يجمعهم نفس الجد الذي لا يعلمون عنه شيئًا، ستة شخصيات من طبقات مختلفة، عادات وتقاليد مختلفة يجمعهم هدف واحد وهو حل لغز الوصية، فهناك حتمًا فائز واحد منهم في نهاية اليوم السادس هو من يستحق القصر. يا ترى من هو الوريث الوحيد للقصر وهل الإرث كنز أَمَ لعنة على صاحبها ؟"(٣).

وقد عقبت الأستاذة (منى محمد) على هذا المقطع السابق قائلة: "تأخذنا الكاتبة في رحلة من الإثارة والتشويق والإبداع الأدبي واللغوي في رحلة إلى القرن الماضي

(١) منى سلامة، رواية (القصر الأسود)، ص١٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٩.
(٣) منى سلامة، رواية (القصر الأسود)، ص٢١ وما بعدها.

حيث القاهرة القديمة، رحلة تشتاق فيها إلى مصر القديمة، إلى لغة حديثهم في ذاك الوقت، وطابع ذاك العصر"[١].

نجحت الكاتبة في هذا وبشكل رائع جدًا في منتهى الإبداع والحبكة الدرامية، فالرواية أشبه بفيلم سينمائي حاصل على جائزة أوسكار في الإبداع، استطاعت المؤلفة بخلطتها الساحرة أن تجعل القارئ شخصية أساسية في رواياتها، يتنقل بين أسطر سيناريو الحوار على ألسنة الأبطال، ينجذب لحنوهم، ويرتعد لغدرهم، يتساءل ويجوب في مخيلاتهم؛ للبحث عن إجابة شافية للفضول الذي يعتريه ولمعرفة السر وراء الأحداث، في عالم يملؤه الجشع والطمع وكنز المال وحب السُلطة والخلود، وأُناس لا يغضبهم شيئًا ولا يثأرون لشيء، في حين أنه يتم سلبهم أعراضهم وأموالهم، يستكملون حياتهم بصورة عادية كأنهم أشباه أشباح لا يعنيهم سوى العيش فقط، عيشة دون غيرة دون غضب دون أي مشاعر، للفوز برضا الطاغوت الذي يسلبهم كل ما لديهم.

ولكن عن أي فوز نتحدث! الفوز بجرعة ماء وكسرة خبز !!!

أم هذا عقاب الله لهم لتعاملهم بالربا! وتوليتهم طاغية عليهم لا يرحم صغيرهم ولا كبيرهم ولا يجد حُرمةً لهتك حُرمة بيوتهم"[٢].

إذًا فالرواية الأكثر تعبير عن أحداث الريف كانت رواية (القصر الأسود)، حيث جسدت الكاتبة شخصيات الرواية بطريقة عبقرية جميلة، تجذب القارئ منذ البداية وحتى يصل في نهاية الأمر إلى فهم طبيعة الحياة الريفية الهادئة.

لقد كثر تصوير الكتَّاب والروائيين للحياة الريفية، وكان من أول من أبدع في هذا المجال الكاتب الروائي العظيم الأستاذ (محمد حسين هيكل)، ثم بعد ذلك توالت الأحداث وتكاثرت الكتابات التي تناولت هذه الجوانب من الحياة الريفية، إلى أن وصلت إلى الروائية (منى سلامة)، وبمقاربة الأفكار التي تبناها (محمد حسين هيكل)، وتلك التي تبنتها الكاتبة (منى سلامة)، نجد أن هناك استلهامًا فكريًا قائمًا بين الروايات التي قامت بها الكاتبة في بادئ الأمر على ما كتبه السابقون وبالأحرى لهذا العلم الكبير.

إن الحديث عن الريف هو حديث متصل بالحياة المصرية التي شهدت تغيرات وتحولات جذرية عبر محطات تاريخية طويلة. فقد اكتسبت العناية بالريف والحياة الريفية مكانة كبيرة لدى الروائي المصري منذ فترة الاحتلال، حيث حفزت حيوية

---

(١) منى محمد، مراجعة رواية (القصر الأسود) لمنى سلامة، طبعة عصير الكتب، ٢٠٠٠م، ص١٩.
(٢) نفسه.

موضوع الفلاح وقضية المرأة الأدباء إلى تقديم عطاء يستوعب الحياة الريفية بكل أبعادها الاجتماعية والسياسية والإنسانية.

وفي رواية (زينب) نجد أن الكاتب قد عرض بعيون دقيقة عادات الريف المصري وبساطة أهله ومحاسن حياتهم ومساوئها، وما عليها من اعتقادات، وكذلك نرى له موقفا لينقد نقائصها ومفاسدها وما عليه من نظام اجتماعي في الريف المصري، وخاصة ذكر مسألة الزواج وقضية المرأة المصرية ليس لها حق في اختيار قرينها وشريك حياتها.

فقد أظهر لنا (محمد حسين هيكل) صعوبة عيش أهل الريف إبان الاستعمار والجهل والظلم اللذين عايشتهما (زينب) بتزويجها دون رضاها. فالكاتب هو الراوي في هذه الرواية فهو يحكي قصة (زينب) ولا يتكلم بلسانها. وتظل (زينب) هي الرواية الرائدة التي تصور الشخصية البسيطة وصراع الحب داخل المجتمع الذي يعاني من سوء الأوضاع الاجتماعية. وقد عمد فيها (هيكل) إلى وصف حياة الريف والفلاحين بصورة لم يسبقه فيها أحد من الكتاب المصريين. ولم يفسح (هيكل) لنفسه في تصوير الشخصيات الجانبية وطبعها. ولم تتسع خبرته بالحياة وتجاربها العميقة وإنما عوضه بأوصافه الغنية للطبيعة الريفية في مصر.

فقد رأى هيكل أن الأدب رسالة لها قيمة وتأثير على أذهان الناس. فدعا إلى الأدب الذي يقتحم الحياة حرًا طليقًا؛ لأن الأدب عنده هو الأدب الذي له صلة وثيقة بالحياة والإنسان. فيبعث الأدب في حياة الإنسان نورًا، كما يجب على الأدب أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تقود الإنسان والإنسانية إلى المجد والسعادة.

قد أفرغ هيكل وصف المجتمع المصري في قالب جميل؛ ليستهوي النفس ويصقل العقل، فقد تناول (هيكل) في روايته (زينب) مسائل المجتمع المصري وقضايا الفلاحين والعمال الكادحين ومشاكل الطبقة العامية والوسطى، كما أشار إلى بعض أمراض المجتمع والفساد الخلقي والاعتقادات القديمة وعلاقات الرجل بالمرأة غير الشرعية، ثم عالج المشكلة التي يعانيها الفلاح المصري من الآلام والمصائب الاجتماعية.

فالرواية من هذا اللون من القصص الاجتماعي تحدث فيها (هيكل) عن تجارب شخصية وصبغها أحيانا بصبغة عاطفية. وقد عالجت رواية "زينب" قضية العلاقة بين

الرجل والمرأة. ودعا الكاتب من خلال وصية (زينب) إلى ترك الحرية للشباب، فالحديث عن العلاقة بين المرأة والرجل بهذه الكيفية يعد جرأة كبيرة من الكاتب.

إن معالجة هذا الموضوع الاجتماعي العاطفي كان ضمن الريف بمناظره الطبيعية والاجتماعية المختلفة، يصف فيه الكاتب حياة الفلاحيين ويصور أفراحهم وأحزانهم، كما يصف الطبيعة الجميلة في الليل والنهار، ويصور البيوت والمساجد والحقول، ولكن في وصف الريف لا ينسجم في معظم الأحيان بين الحديث والطبيعة.

وعلى هذا فقد كان (محمد حسين هيكل) من السابقين الذين نقلوا الثقافة الغربية إلى العربية. وهو أول من قدم إلى الأدب العربي الحديث الرواية الفنية، حيث بدأ حياته الأدبية والفكرية متأثرًا بالحضارة الغربية وأفكارها ونزعاتها الوطنية إلى النهضة أثناء إقامته في فرنسا كطالب، حيث كتب أول روايته (زينب)، وتعتبر رواية (زينب) الرواية التأسيسية في الأدب العربي الحديث، على الرغم من أن رواية (زينب) ليست أول رواية في الأدب الروائي العربي عمومًا والمصري خصوصًا، فقد سبقها عدد لا بأس به من الروايات مثل رواية (علم الدين) لـــ (علي مبارك)، و(تخليص الإبريز في تلخيص باريس) لـــــ (رفاعة الطهطاوي)، و(حديث عيسى بن هشام) لـــــ (المويلحي)، وروايات (جورجي زيدان) عن تاريخ الإسلام، ورواية (الدين والعلم والمال) لـــ (فرح أنطون) وغيرها الكثير، فعلى الرغم من ذلك فإن رواية (زينب) تحتل أهمية خاصة بين كل هذه الأعمال الروائية؛ لعدة أسباب: منها، تناول (محمد حسين هيكل) لأول مرة الريف المصري وصور حياة الفلاحيين، وأفراحهم وأحزانهم بمناظره الطبيعية والاجتماعية المختلفة.

وقد سارت على نفس نهجه الكاتبة (منى سلامة) كما أسلفنا، فقد عالجت الأفكار النابعة من المجتمع المصري بكل أطيافه سواء الريفي منه أو الحضري، العالم الذكوري أو الانثوي، عالم العادات والتقاليد الطيبة، ذاك هو العالم المصري بكل ما تحمله الكلمة من معان.

المدينة:

لقد قامت الرواية المصرية بمهمة الضمير الإنساني الحى في مواجهة التحديات والأزمات التي عاناها الشعب المصري فعبّرت عن أفكار الإنسان المصري البسيط

وأحلامه، ورصدت حركة الجماهير ونضالها، عن طريق رسم شخصياتها وعبقرياتها ونوازعها، وصورت معظم جوانبَّ الحياة السياسية والاجتماعي[١].

كما إن الروايات التي تحدثت عن المدينة كثيرة ومتعددة، ومنذ مطلع القرن العشرين كان تركيز معظم الأدباء والكتاب والمفكرين منصب على مواجهة قضايا المجتمع الحضري المتواجد في المدينة، وقد كان اهتمام هؤلاء الكتاب والمفكرين بمدينة القاهرة، حيث التعليم والثقافة والفكر والأحزاب السياسية والاجتماعية[٢].

كما توجه بعض الكتاب والروائيين الأخرين إلى التحدث عن مدينة الإسكندرية، حيث الهواء النقي والصفاء الروحي لدى سكانها، وحسن المعاملة والضيافة والكرم، وكذلك الآثار القبطية والرومانية المتعددة بها، والتي مر عليها العديد من العصور التاريخية الجميلة، والتي كانت تعد فيها منارة مصر ووجهة المصرين الذين يبحثون عن الراحة والصفاء والحياة الهادئة، بل كان الشعراء والمفكرون يستلهمون من عبيرها ومن أجوائها ما يزينون به مؤلفاتهم الأدبية ورواياتهم.

كما كان هناك توجه أخر من الكتاب والمفكرين، وهو ما اتجه إلى الحديث عن بلاد الأقصر وأسوان، حيث كان الأدباء ينظرون نظرة مختلفة إلى تلك الأماكن باعتبارها معالم سياحية وأماكن جذب عالمية لعقول السائحين من شتى أرجاء الأرض.

فقد كانت توجهات الكتاب والمفكرين ذات تأثيرات متباينة فبعضهم يكتب عن بلاد النوبة، وبعضهم عن القاهرة ومعالمها، وبعضهم عن الإسكندرية وروعتها، والبعض الأخر يكتب عن الأقصر ومعابدها الأثرية.

ولكن كان هناك عامل مشترك بين كل هؤلاء الكتاب وهو المدينة، وطباع الناس فيها، واختلاف الثقافات، وتباين المعارف، واختلاف الطبقات الاجتماعية، والمقارنة بين الثراء والفقر، والمقارنة بين التوجهات السياسية والاجتماعية، فالمدينة بها كل هذه التباينات التي تدفع بالمؤلف والروائي إلى تجسيد هذه الأشياء بأسلوبه، ولو كان هناك مؤلفان يكتبان روايتهما عن نفس المدينة لتباينت كتابتهم، ولا ضير في ذلك، فكل واحد منهم يعالج الموضوع من وجهة نظره الخاصة، بل ومن معايشته للحدث، ولتأصيل مفهوم المدينة لغويًا واصطلاحًا فإن المدينة تعني:

(١) غادة برور، لطيفة عبايدية، رسالة ماجستير بعنوان: مقولات الخطاب الروائي في رواية عناقيد الموت – العام الجامعي ٢٠١٩ – ٢٠٢٠ م – مقدمة الرسالة بتصرف من الباحثة.

(٢) نفسه.

لغـــــــة:

ذكرها في معجم لسان العرب لابن منظور في مادة (م د ن) مدن بالمقام أقام بـــه ومنه المدينة وهي فعلية والجمع مدائن ومن يقال للأمة مدينة أو مملوكة[١].

اصطلاحًا:

تشترك في أغلب المعاجم العربية فهي تحمل معنى الإقامة. وتطلق المدينة علـــى مدينة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ويقصد بها مدينة يثرب الاســم للمدينـــة قبـــل الهجرة، كما يقال تمدن الرجل تخلق بأخلاق أهل المدن وتحول من حالة الجهل الى حالة التمدن والأنس والمعرفة، وعليه في التمدن يمثل ظاهرة اجتماعية يتميز بهـــا الفـــرد، إذ ينتقل من حالة البداوة والجهل الي حالة الحضر والرقي والتقدم في المجتمـــع، "والمدينـــة دين أي ملك يوصف المدينة يشترط وجود الملك والسلطان أو الوالي على الأقل عكـــس القرية[٢].

كما إن مصطلح المدينة قد تكرر ذكره في القرآن في مواضع عـــدة، كمـــا ورد أيضًا في السنة النبوية أيضا سواء أراد به المدينة المنورة أم دار الهجرة، أو أراد بـــه أي مدينة أخرى.

كما تعددت أقوال الصحابة في وصف المدن التي فتحوها أو هاجروا إليها فرارًا بدينهم، ولكن البحث الذي نحن بصدد الحديث عنه هو ما يتعلق بالرواية للكاتبـــة (منـــى سلامة).

وتتجلى صورة المدينة وتجسيد أحداثها بصورة واضحة من خلال رواية مزرعة الدموع، فهذه الرواية تعتبر تجسيدًا قويًا لأحداث المدينة، مما يدل علـــى التناســـق بـــين أبطال الرواية سواء الشخصيات الأساسية أو الشخصيات الثانوية.

"في هذه اللحظة وفي حديقة فيلا كبيرة في المعادي كان هناك حفل خطوبة لأحد أكبر رجال الأعمال بالقاهرة" .. عمر نور الدين الألفي.

كان" عمر " في السابعة والثلاثون من عمره، أسمر طويل عريض المنكبـــين ذو شعر أسود حريري، تجمع ملامحه بين الوسامة والرجولة.

رجل تتمناه الكثير من النساء ليس لشكله ووسامته فقط، بل لمركزه الاجتمـــاعي وثرائه الفاحش أيضًا، فبالرغم من صغر سنه إلا إنه يملك ويدير العديـــد مـــن المـــصانع

(١) انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م، ج١، ص ٨٥٩١.

(٢) انظر: عبدالقادر بو عرفة، المدينة والسياسة (تأملات في كتاب الضروري في السياسة لابن رشد)، عالم الكتب الحديث، ط٣، ٢٠٠١م، ص٦٩.

والأراضي والشركات التي كانت ملكًا لأجداده، ولكنه بذكائه وحسن إدارته لأعماله نجح في توسيع أعماله حتى ذاع صيته داخل مصر وخارجها"[1].

في هذه الفقرة، تجسد لنا الكاتبة ببراعة فائقة ما يحدث داخل بعض الأوساط الاجتماعية المرموقة، حيث تدور أحداث هذا المشهد داخل فيلا في حي المعادي بالقاهرة الكبرى، ترتبط بالأحداث الجارية بعض المناسبات السعيدة التي تزهر في حياتها وهي أحداث الارتباط والخطوبة والزفاف، كما تهيمن أحداث البهجة على أف ارد الأسرة، وتكمل الكاتبة هذه المشاهد كما يلي:

"أقبل رجل في العقد السادس من عمره على "عمر" قائلًا: – ابني حبيبي، أخيرًا عشت وشوفت اليوم ده.

– " عمر" وهو يقبل يد والده : بابا، ربنا ما يحرمني منك.

– مبروك يا "عمر" أخيرًا هنفرح بيك، بقولك أيه ما تطولش في الخطوبة هاا عايز أشيل ولادك قبل ما أموت.

– " عمر" ضاحكاً : ربنا يديلك طولة العمر يا بابا، ما تقلقش هو ده أصلاً اللي أنا ناوي عليه أرى "عمر" والدته "كريمة" مقبلة عليه فاستقبلها بابتسامة قائلاً: أمى الغالية، هي فين العروسة مش هتنزل بأه.

– الأم ضاحكة: هههههه اصبر على رزقك، خلاص خلصت لبس والكوافير كمان خلص شغله.

– " عمر" واجماً : كوافير؟ يعني راجل اللى بيزوقها؟

– "كريمة" : بقولك أيه ما تضايقش البنت النهاردة، يوم سيبها تفرح بيه وبعدين أنت ابقى طبعها بطبعك

وتضيف (منى سلامة) وتستطرد قائلة:

أقبلت " نانسي "في فستانها زهري اللون الذى صُمم على يد أشهر مصممي الأزياء في العالم، كانت فاتنة تخطف الأنظار بعينيها الخضراويين وشعرها الأشقر الذي رفعته إلى الخلف، وبشرتها الملساء ناصعة البياض، كانت كالأميرة تنزل على سلالم الفيلا ليستقبلها أميرها الساحر – أمسك" عمر" يديها وقبلها وهمس لها: حبيبتي.

"نانسي "بابتسامتها الساحرة: عجبتك؟

([1]) منى سلامة، رواية (مزرعة الدموع)، دار عصير الكتب، ط٤، ٢٠١٦م، ص٨ وما بعدها.

– امتلأت عيناه بنظرات الحب والإعجاب قائلاً: عجبتيني بس، ده انتى هوستيني ... اعملى حسابك فترة الخطوبة هتكون قصيرة جدًا"[1].

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لبعض الاقتباسات يمكننا القول: إن هذا يعد تجسيدًا قويًّا للأحداث التي يعيشها أفراد الأسرة، بل وكذلك الأجواء التي تهيمن على هذه المناسبة، حيث يشعر الناس في هذه الأوقات بدفء المشاعر وصدق الأحاسيس، كما إن الكاتبة قد عبرت بكل صدق عن منظر جيد من تلك المشاعر والأحاسيس التي قد تهيمن على أجواء الخطوبة، واذا انتقلنا إلى حدث أخر في نفس الرواية، وتحديدًا في منتصفها نجد أن الكاتبة أيضًا تعبر عن الحياة في المدينة في ثوب جديد.

ومن خلال هذا البحث لا نتعرض لسرد الأحداث والتعليق عليها، وانما نحاول استجلاء وإيضاح صورة المدينة التي وردت في هذه الرواية التي نحن بصدد دراستها، كما تجدر الإشارة أيضًا إلى أن الكاتبة لم تقتصر على هذه الرواية فقط، وانما ناقشت مفهوم المدينة في بعض الروايات الأخرى كما هو الحال في (قطة في عرين الأسد)، ولكن الصورة الأكثر تجسيدًا للأحداث، وبيان الصورة الحقيقية للمدينة تتجلى في هذه الرواية بصورة جيدة.

وفي موضع آخر: "ذهب "عمر" للبحث عن "عبد الحميد" لكنه وجد "ياسمين" تقف أمام مبنى سكن العمال.

وتتحدث في هاتفها ويبدو عليها التوتر ... أنهت مكالمتها ... اقترب منها قائلاً باهتمام: في أيه يا "ياسمين .." والدك فين؟ نظرت إليه قائلة بتوتر: كلمته دلوقتي قال لها "عمر": "ازاى ... هو معهوش موبايل قالت "ياسمين" شارحة: "ريهام" معا.

سألها "عمر" باهتمام: طيب هو فين؟ وليه ساب المخزن ومشى؟

ابتلعت "ياسمين" ريقها بصعوبة ونظرت إليه بحيرة قائلة: بيقول إن في حد اتصل بيه على موبايل "ريهام" وقالها انك طلبت إن بابا يروحلك على المستشفى اللى فيها العامل اللى اتصاب .. "ريهام" كانت خلصت شغلها فراحت معا.

قال لها "عمر" بدهشة: أنا مطلبتش من حد انه يبلغ والدك بكده ... ولا طلبت أنه يروحلي على المستشفى.

قالت "ياسمين" في دهشة: أمال مين اللي كلمه ... وعلى موبايل "ريهام" كمان ... يعني حد عرفنا.

---

[1] منى سلامة، رواية (مزرعة الدموع)، ص٨ وما بعدها.

قال "عمر" في حيرة: أنا أصلا معرفش رقم "ريهام" قالت "ياسمين" في ضيق: أيه اللخبطة دي بأه هدءها "عمر" قائلا: متقلقيش لما ييجى والدك هنفهم منه كل حاجه.

همَّ بأن ينصرف لكن نظر إليها قائلا في حنان: تعالى اعدى عندنا في بيت المزرعة لحد ما والدك وأختك يرجعوا.

نظرت "ياسمين" اليه قائلة بحرج: لأ شكرا ... أنا هطلع أوضتى أستناهم أومأ برأسه قائلا: طيب براحتك ... ولما ييجى والدك خليه يجيلى"[1].

من خلال تلك الاقتباسات التي ذكرناها أنفا يمكننا القول:

- هناك تنوع في كتابات (منى سلامة).
- الأسلوب المستخدم يتناسب مع القارئ العربي بوجه عام.
- رواية (مزرعة الدموع) تعد واحدة من أفضل الروايات والأعمال الروائية.
- حققت هذه الرواية صدًا كبيرًا فور صدورها.
- هناك اهتمام من القراء بالأعمال الأدبية نظرًا لأنها تجذب فكر القراء.
- كما تتميز أعمال الكاتبة (منى سلامة) بالسلاسة والبساطة في الأسلوب وعمق الفكرة المطروحة.
- كما إنها تستخدم أسلوبًا يجعلها قادرة على مخاطبة فئة الشباب مما يجعلها قادرة على جذب الشباب صغير السن للقراءة، حيث إنها أجادت توصيف واقع الشباب من خلال كتاباتها الروائية.

لقد كانت المدينة على الدوام مركزًا لصناعة التاريخ، "فتاريخ العالم هو تاريخ مدن، ومن ناحية فعلية فإن التاريخ هو دراسة المقابر الحضرية"، والمدينة هي المجال الحيوي الذي شهد التحول الإنساني وتقدم العالم.

إن المدينة من أحد جوانبها: هي كيان عضوي مادي مكوّن من مؤسسات وأنماط وعلاقات تربط هذه المؤسسات بعضها ببعض (الأسرة – الاقتصاد – العمارة – وسائل الاتصال – الشرطة – مراكز التسلية والثقافة ... إلخ).

وهي من جانب آخر: وجود روحي حي ... هذا الوجود الذي يميز مدينة عن أخرى، ويمنح كلاً منها طابعها الخاص. فلكل مدينة روحها، وهذه الروح هي التي تلهم الشعراء والقصاصين والروائيين كي يجعلوا من مدينتهم فضاءً لإبداعاتهم.

([1]) منى سلامة، رواية (مزرعة الدموع)، ص٣٩٣ وما بعدها.

وإذا طالعنا روايات (نجيب محفوظ) –على سبيل المثال– فإننا نجد أنه قد عالج قضايا المدينة في رواياته، فهل كان للرواية أن ترى النور ــ جنسًا أدبيًا لــه خصائصه التي نعرفها اليوم ــ لولا أن المدينة قد خلقت النمط الفردي من البشر، ذلك الإنسان الذي يشعر باستقلاله الذاتي، وقد تحرر إلى حد بعيد من المواضعات الاجتماعية التقليدية. ولولا اشتباك العلاقات وملابساتها وتعقيداتها وإشكالياتها داخل المدينة، وقلق الإنسان وحيرته وهو يواجه المجهول ويمضي إلى مصيره وحيدًا ؟.

إن غياب الاستقرار والطمأنينة، والتوقع المضطرب للإنسان لما تنتظره من احتمالات ومفاجآت في دوامة حركة الحياة السريعة والصاخبة ... الخفية والظاهرة للمدينة، هو الذي يهيئ المرجعية لخلق التنوع والإثارة والتوتر والتصعيد في السرد الروائي.

وبالمقارنة بين الروايات التي تناولت القرية والروايات التي تناولت المدينة نجد أن الروايات التي تتحدث عن الحياة في الريف تقترب من شكل القصص الشعبي، أو الحكايات القديمة، أو الأساطير، فرواية الريف أو البوادي التي لا تتصل بالمدينة تبني عالمًا مغلقًا على نفسه، محدودًا ومكررًا. أما مركز الفاعلية في أية رواية معاصرة فهي المدينة، حتى وإن كان جزء من أحداثها يجري في الأرياف والبوادي. وحتى يكون الريف مسرحًا لرواية فإنه ينبغي أن يكون مفتوحًا على المدينة، أو مخترَقًا من قِبَلها.

نعرف أنه لولا شخصية (مصطفى سعيد) لما كانت هناك رواية أسمها (موسم الهجرة إلى الشمال) للكاتب (الطيب صالح). واذا كانت بداية الحدث ونهايته، في هذه الرواية تبدو وكأنها واقعة في الريف فإن (مصطفى سعيد) لم يصنع مغامرته الخاصة إلاّ منذ اللحظة التي غادر فيها الريف طفلاً؛ ليدرس في (القاهرة) أولاً، ومن ثم في (لندن). وهناك، ولاسيما في (لندن)، كانت الخيوط المحكمة والمثيرة للسرد الروائي تنسج وتكتمل.

هاجر (مصطفى سعيد) وهو يحمل ذلك الاستعداد البيولوجي والنفسي الأول: ذكاءه الحاد، وخلوه من العواطف المائعة؛ ليخلق روايته على تلك الخريطة المعقدة من العوالم والعلاقات المتمثلة بمجتمع لندن، وليبتكر شخصيته الفريدة. وما كان باستطاعته أن يسرد قصته مع ذلك العالم إلاّ لشخص آخر خاض تجربة الهجرة إلى مدن الشمال، وعاد بشهادة جامعية)، هو الراوي الأول داخل البنية السردية لرواية (موسم الهجرة إلى الشمال)، وهو المروي له الرئيس أيضًا).

الخاتــمة

وبعد دراسة هذا البحث نستخلص أهم النتائج وهي:

١. إن أنماط المجتمع لدى الكاتبة (منى سلامة) متعددة، فهناك تباينات فـــي المجتمـــع المصري، فنجد مجتمع الريف والمجتمع المدني، وهذه المجتمعات تضم العديد من الأفراد التي تؤثر على الرواية بشكل ظاهر.

٢. إن المجتمع المصري يستخلص صورة الريف من خلال المدينة وكـــذلك صـــورة المدينة.

٣. وقد توالت الروايات في عرض أنماط المجتمع منذ فترة طويلة، والإعـــلام يـــشغل هذه الأعمال ويقوم بنشرها.

٤. تناولت الدراسات العديد من موضوعات الريف وجعلتها محط الأنظـــار وجعلتهـــا أيضًا تحمل في طياتها الكثير من التساؤلات والأفكار.

٥. إن الحديث عن أنماط المجتمع قد شهد كثيرًا من التغيرات والتحولات التاريخية.

٦. قامت الرواية بمهمة الضمير لمواجهة التحديات والأزمات في المجتمع.

المصادر والمراجع

١. تعريف الريف والحضر – بحث علمي منشور – مجلة كلية الآداب، جامعة دمياط – قسم علم الاجتماع – ٢٠١٢م.
٢. عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار يعرب، ٢٠٠٣م.
٣. عبدالقادر بو عرفة، المدينة والسياسة (تأملات في كتاب الضروري في السياسة لابن رشد)، عالم الكتب الحديث، ط٣، ٢٠٠١م.
٤. غادة برور، لطيفة عبايدية، رسالة ماجستير بعنوان: مقولات الخطاب الروائي في رواية عناقيد الموت – العام الجامعي ٢٠١٩ – ٢٠٢٠ م.
٥. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
٦. منى سلامة، رواية (القصر الأسود)، ٢٠٢٠م.
٧. منى سلامة، رواية (مزرعة الدموع)، دار عصير الكتب، ط٤، ٢٠١٦م.
٨. منى محمد، مراجعة رواية (القصر الأسود) لمنى سلامة، طبعة عصير الكتب، ٢٠٠٠م.